والجوع *، وهو: نقص الطعام، سواء أكان ذلك بفقد النقود التي يشتري بها الإنسان طعامه، أو بفقد الطعام نفسه، بحيث لا تنبت الأرض، أو لا يجلب إلى البلد.
ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » نقص من الأموال: با
يحدث من الجوائح والفيضانات وغيرها، مما يرسله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده عند معصيتهم إياه، ونقص الأنفس: بالموت؛ كالأوبئة ونحوها، ونقص الثمرات: أن ما يخرج من الأرض؛ كالأشجار والزروع وغيرها، تصاب بنقص: إما في فساد ثمرتها، أو هلاكها، أو ضعفها، أو ما أشبه ذلك.

وكل هذه مصائب يقدرها الله - عز وجل ـ؛ ليبلو عباده: أيصبرون أم لا يصبرون؟ ولهذا قال: «ويشير الطبريت»، أي: أخبرهم با يسرهم، وهم الذين يصبرون على هذا البلاء: الخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

والخطاب في قوله: «وبشر الصابرين * : إما للرسول و، أو لكل
من يصح توجه الخطاب إليه، إلى يوم القيامة. ثم بين صفة من صفات الصابرين، يتميزون بها عن غيرهم، وبين ثوابهم، فقال ـ تعالى ـ: * الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون و أولتيك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولنك هم المهتدون ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧]:

وأصبتهم مصيبة ، أي: من المصائب السابقة في الآية قبلها، أو
غيرها.
«قالوا »، أي: بألسنتهم، معترفين بها في قلوبهم. «إنا لله »، أي: له، ملكا وعبيدا؛ فله أن يفعل بنا ما شاء. وإنا إليه راجعون ، أي: في جميع شؤوننا، ومنها أننا سنبعث ونلاقيه؛ كما قال ـ تعالى ـ: « ينأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه * [الانشقاق: 6].
(عليهم صلوات من ربهم ورحمة »، الصلوات من الرب على
العبد، قيل: إنها الرحمة، والصواب: أن الصلوات غير الرحمة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: *صلوات

من ربهم ورحمة »، والعطف يقتضي المغايرة، فما هي الصلاة على العبد؟ «الصلاة على العبد» أحسن ما قيل فيها ما قاله أبو العالية ـ رحمه الله ـ حيث قال: «صلاة الله على العبد: ثناؤه عليه في الملا الأعلى»، يعني: أن الله ـ تعالي ـ يثني على المصلى عليه، في الملا الأعلى عند الملائكة.

وعلى هذا: فمعنى الآية: «عليهم صلوات من ربهم»، أي: لهم ثناء من الله ـ تعالى ـ عند الملا الأعلى. ورحمة » أي: رحمة يحصل بها مطلوبهم، وينجون بها من

مرهوبهم.

وأولتيك »، أي: إن الذين إذا أصابتهم مصيبة، سلموا الأمر

١٥٥٢

لهم

أحكام من القرآن الكريم

لله، وقالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون »، «هم المهتدون» . و«هم» هذه يسميها علماء اللغة: ضمير الحصر، يعني: أنها تحصر الحكم فيها بعدها، ويتضح هذا بالمثال، فإذا قلت: فلان القائم، أو قلت: فلان هو القائم، صار قولك هو القائم، أكد في الحصر والاختصاص من قولك: فلان القائم؛ ولهذا فهي ـ في الحقيقة ـ مع إفادتها الحصر، تفيد: التوكيد.

وأولتيك هم المهتدون»، أي: الذين اهتدوا بهداية الله ـ تعالى ـ

في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي: ١- جواز التوكيد بالقسم في الأمور الهامة؛ لقوله: (ولنبلونكم بشيء ، ولكن ينبغي أن يعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يكثر من الأيمان، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وإلا فإنه يلقي الخبر على ما هو عليه، بدون توكيد، لكن عند الحاجة لذلك يؤكده بالقسم. ٢- أن الخوف والجوع ونقص الأموال ونقص الأنفس ونقص الثمرات، كلها من المصائب والبلاء.

٣- بيان حكمة الله - عز وجل ـ في تدبيره لخلقه، حيث يقدر لهم الضراء والسراء؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا؛ كقوله - تعالى -: ولنبلونكم حتى تعلم المجتهدين منكم والصبرين وتبلوا أخباركه [محمد:٣١].

سورة البقرة

٥٥٣

٤ـ أنه ينبغي للإنسان أن يشعر بقـدر نعمـة الله عليـه، بـالأمن، والعيش الرغيد، ونمو الأموال والأنفس والثمرات.
هـ أن نقص هذه الأشياء مصيبة، فتكون زيادة هذه الأمور، نعمةً ومنحة، ولا شـك أنـه كـلـا كـثـرت الأموال، وصرفت في طاعة الله، واستعمل الناس حياتهم في طاعة الله، فإن ذلك خير. 6 ـ أنه ينبغي للإنسان أن يبشر أهل العمل الصالح، بـا يكـون مـن ثواب هـذا العمـل؛ لقولـه ـ تعـالى -: «وتشير الصبرين ان الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » والمبتلى بمصيبة من المصائب المذكورة، لا يخلو من أربع حالات: الحالة الأولى: التسخط والتضجر.
الحالة الثانية: الصبر.
الحالة الثالثة: الرضا.
الحالة الرابعة: الشكر.
هكذا قسم بعض العلماء من يصابون بالمصائب، إلى هذه الأقسام
الأربعة:

فأما الحال الأولى:
وهي
التسخط، فهي حرام، لا يحل للإنسان أن يتسخط على قـضاء الله وقدره، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا يعني ذلك أن نقـول: إنه لا يحزن، قد يحـزن الإنسان، ولا يستوي عنـده المصيبة وعـدمها،

١٥٥٤

أحكام من القرآن الكريم

فتكون المصيبة أشد وقعا عليه، ويحزن لها، لكن يصبر؛ وإلى هـذا يـشير قول النبي ﷺ في ابنـه إبـراهيـم حـين مـات، قال: «إن العيـن تـدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنـا، وإنـا بفراقـك يـا إبـراهيم لمحـزونون»(١).
الحال الثانية: الصبر، وهو: أن يتجرع ألم المصيبة ويتألم، ولا يستوي عنده وجود المصيبة وعدمها، بل هو متكـدر منهـا، لكنه لا يقـول مـا يغضب الله، ولا يفعل ما يغضب الله، وهذا

واجب، يجب على الإنسان
أن يصبر، ولا يجوز أن يتسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله. الحال الثالثة: أن يرضى بقضاء الله، أي: يرضى بهذه المصيبة التي أصابته، والفرق بين الرضا والصبر: أنه في حالة الصبر، يتألم الإنسان من المصيبة قلبيا، لكن لا يظهر التسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله، لكنه يتألم، إلا أنه صابر عن فعل ما لا يرضي الله، أما في حالة الرضا: فإنه لا يتألم، بمعنى: أن وجود هذه المصيبة عنده كعدمها؛ لأنها من الله، لا يكون في قلبه ألم أو حسرة، ومعلوم أن هذه الحالة أعلى من الحال الأولى، وإن كانت الحال الأولى أشد من جهة المعاناة، معاناة منازعة النفس.
أما الحال الرابعة: فهي الشكر على هذه المصيبة، ولكن قد نقول:

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» رقم (١٣٠٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان، رقم (٢٣١٥).

سورة البقرة

ههه

كيف يشكر الإنسان على مصيبة ألمت به، وأثرت عليه؟ فنقول: نعم يشكر الله؛ لأن هذه المصائب عقوبات معجلة على ذنوب فعلها، فيشكر الله - سبحانه وتعالى ـ على أن عجل عقوبة هذه الذنوب في الدنيا، قبل أن تكون في الآخرة، وأيضا: هو يشكر الله - سبحانه وتعالى ـ على ما يحصل له من ثواب هذه المصيبة، فيكون شكر الله منه على هذه المصيبة، من وجهين:
الوجه الأول: أن عقوبته عجلت، والعقوبة في الدنيا أهون من

عقوبة الآخرة.
والوجه الثاني: أن الله ـ تعالى ـ يثيبه على هذه المصيبة أكثر مما يتوقع. فهذه أحوال من أصيب بمصيبة.

ـ أن من تمام الصبر، تفويض الأمر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند المصائب؛ لقوله ـ تعالى ـ: « إنا لله وإنا إليه راجعون »؛ ولهذا ينبغي لمن أصيب بمصيبة أن يسترجع فيقول: « إنا لله وإنا إليه راجعون »، وأن يقول ما جاءت به السنة: «اللهم، أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها»؛ فإن من قال ذلك، آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرا منها، قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها

ـ: إنه حين مات زوجها أبو سلمة - رضي الله عنه ـ وهو من أحب الناس إليها ـ قالت ما ذكره النبى ﷺ قالت: « إنا لله وإنا إليه راجعون »، اللهم، أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرا منها، فكانت تقول في نفسها: من خير من أبي سلمة،

= |556|

فإذا برسول الله ﷺ يتزوجها بعد أبي سلمة، فأعطاها الله سبحانه خيرا مما أخذ منها).
٨ ـ أن العباد الله ـ عز وجل ـ، خلقا وملكا وتدبيرا؛ فهو يفعل فيهم

ما يشاء.
9- الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله: «وإنا إليه راجعون *. أما قوله ـ تعالى ـ: «أولتيك عليهم صلوات من ربهم ورحمة »،
فمن فوائدها:

١٠ـ أن الله ـ تعالى ـ يعطي الصابرين هذا الثواب الجزيل. ١١- علو منزلة هؤلاء الصابرين؛ حيث قال: «أولتيك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولتيك هم المهتدون . أولتيك ؟ : اسم إشارة للبعيد؛ وذلك لعلو مرتبتهم. ١٢- بيان الثواب العظيم والجزيل للصابرين؛ حيث نالوا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الثناء عليهم في الملا الأعلى؛ لقوله: (أولنيك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ؟.

١٣- بيان ضعف القول بأن الصلاة من الله هي: الرحمة؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ عطف الرحمة على الصلوات، والعطف يقتضي المغايرة؛ فدل ذلك على أن الصلوات غير الرحمة، وكا أسلفنا أن أبا

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

العالية ـ رحمه الله ـ قال: «إن صلاة الله على عبده، ثناؤه عليه في الملا الأعلى».

١٤- أن هؤلاء الصابرين موفقون للهداية؛ لقوله ـ تعالى -: وأولتبلك هم المهتدون ؟ .
نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين على البلاء، الشاكرين على الرخاء، المهتدين بهداية الله، إنه جواد كريم.

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: « إن الصفا والمروة من شعاير الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الصفا والمروة: جبلان معروفان، شرقي الكعبة المشرفة، ويسمى الأول: جبل أبي قبيس، جبل كبير من جهة غزة، وعليه بيوت الآن!! والثاني: جبل المروة، وكان عليها صنان لقريش، فتحرج الصحابة - رضي الله عنهم ـ من أن يطوفوا بها، فأنزل الله هذه الآية: «إن الصفا والمروة من شعائر الله ؟.

والشعائر: جمع شعيرة، وهي الخصلة المعظمة في كتاب الله ـ عز وجل كا قال ـ تعالى ـ: (ذالك ومن يعظم شعتبر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ [الحج: ٣٢].
«فمن حج البيت أو اعتمر» «أو» هنا: للتنويع، يعني: أن من

حج، أو اعتمر، فليسع بينها: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما »، ويستفاد من قوله ـ تعالى ـ: «من شعائر الله * أن الإنسان مأمور بالطواف بها؛ فإن شعائر الله معظمة، ومن تعظيمها أن يطوف المسلم بين الصفا والمروة.

و«الجناح» هنا بمعنى: الإثم، و«أن يطوف بهما »، أي: بينها. ومن تطوع خيرا »، أي: من فعل طاعة؛ فإن الطاعة خير. فإن الله شاكر عليم * يشكر هذا الفاعل، فيعطيه جزاءه: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي: 1ـ أن الصفا والمروة من شعائر الله، ويتفرع على ذلك أن الطواف بها قربة إلى الله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ أن السعي بين الصفا والمروة، من شعائر الحج والعمرة؛ لقوله - تعالى -: «فمن حج البيت أو اعتمره .
أن نفي الجناح لا يمنع أن يكون الشيء مأمورا به؛ لأنه قد ينفى الشيء، خوفا من توهمه، مع بقاء أصل المشروعية . 3ـ أنه لا بد أن يستوعب الإنسان ما بين الصفا والمروة؛ لقوله: أن يطوف بهما ، ولا يمكن تحقق الطواف بها، إلا إذا استوعب ما بينها؛ ولهذا قال العلماء: «لا بد أن يستوعب الساعي، ما بين الصفا والمروة». وفي الوقت الحاضر علامة الاستيعاب، هي: منتهى الشبك -

سورة البقـرة

٥٥٩١

الممر ـ الذي جعل للعربات، فإنه بانتهائه يكون انتهاء المسعى القديم. ٤ـ الحث على فعل الطاعة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: «ومن تطوع خيرا
فإن الله شاكر عليم ؟ .
5 - إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: «الشاكر» و«العليم» وإثبات ما تضمناه من صفة، وهي: «الشكر» و«العلم»، ولكن لا شكر إلا على فعل محمود؛ فالله ـ تعالى ـ يشكر من فعل ما يقربه إليه ويرضيه.

**

ثم قال الله - تعالى -: « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينت والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتب أولتيك يلعنهم الله ويلعنهم اللعنون (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولتهك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ [البقرة: ١٥٩-160].

هاتان الآيتان فيمن آتاه الله علها فكتمه، توعده الله ـ تعالى ـ بهذا الوعيد الشديد: أن الله يلعنه، ويلعنه ـ أيضا ـ اللاعنون؛ وهذا كقوله ـ تعالى -: « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أوليك عليهم لعنة الله والمليكة والناس أجمعين ﴾ [البقرة:161]، إلا أن الله ـ تعالى ـ استثنى من تاب وأصلح وبين، ووعد من قام بذلك، أن الله يتوب عليه، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو التواب الرحيم.

-

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي: ا. تحريم كتم ما أنزل الله مـن البينات والهـدى، وأنـه مـن كـبـائر

=.

الذنوب؛ لأن الكاتم مستحق للعنة الله ولعنة اللاعنين. ٢ـ علو الله - عز وجل ـ؛ لقوله: «ما أنزلنا من البيت والهدى*،
وعلو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: علو ذاتي: بمعنى أنه ـ تعالى ـ بذاته فوق كل شيء. وعلو معنوي: بمعنى أن صفاته كلها عليا، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه؛ لقول الله - تعالى -: ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم [النحل:60].
3ـ أن ما أنزله الله ـ عز وجل - بيان للناس وهدى؛ وهذا كقوله ـ تعالى ـ في وصف القرآن: « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينت من الهدى والفرقان * [البقرة:185].
٤ـ أن ما نزل من عند الله، فإنه هدى يهتدي به كـل مـن شـاء الله - تعالى ـ هدايته؛ لقوله - تعالى -: «من البيت والهدى ؟. ه أن الله ـ تعالى ـ بيـن للناس في الكتب ما يحتاجون إليه في أمـور دينهم ودنياهم، فما من شيء يحتاجه العباد في عبادة الله، إلا بينـه ـ عـز وجل -، وما من شيء يحتاجونه في المعاملات بينهم، إلا بينـه الله ـ عـز وجل ـ، حتى يكون الناس على بصيرة من أمرهم، وحتى تقوم عليهم الحجة؛ لقوله: «من بعد ما بينه للناس في الكتب ؟ .
لا
6ـ أن أولئك الكاتمين يستحقون اللعنة؛ لقوله: «أولتيك يلعنهم الله ويلعنهم اللعنُون ، ويترتب على ثبوت اللعنة لهؤلاء، أنه يجـب عـلى

أهل العلم أن يبينوا للناس ما أنزل الله ـ تعالى ـ من العلم، ولا يكتمـوا شيئا منه؛ مداهنة، أو محاباة لبعض الناس.

ـ ومن الفوائد والحكم في الآية الثانية، وهي قوله ـ تعـالى -: ﴿ إلا *
الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولتيك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم
[البقرة: 160]، ما يلي:
هـ أن من تاب مـن ذنـب، فإن الله ـ تعـالى ـ يتـوب عـليـه، وهـذا مستفيض مشهور في كتاب الله، وسنة رسوله ، ولكن التوبة لا بد لها من شروط:
الشرط الأول: أن تكون بإخلاص، بألا يحمل الإنسان على التوبة إلا وجه الله، ورجاء ثوابه، لا يريد بذلك جاها، ولا رياسة، ولا مـدحا من الناس.

الشرط الثاني: أن يندم على ما جرى عليه من المعصية، سواء كانـت المعصية بترك واجب، أم بفعل محرم.
الشرط الثالث: أن يقلع عما هو عليه من الذنب، فـإن كـان إهمالًا لواجب، قام به، أي: بالواجب، وإن كان فعلًا لمحـرم، نـزع عنـه، وإذا كان حقا لآدمي، فإنه لابد أن يستحله، أو يؤديه حقه.
الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعـود في المستقبل، فـإن قـال: إنـه
تائب، ولكن من نيته أن يعود، فإن هذه التوبة ليست بصحيحة. الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهي

بالنسبة لكل فرد، تنتهي بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس، تنتهي بطلوع الشمس من مغربها، ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله - تعالى : (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى ثبت الفن ﴾ [النساء:18]، وقوله: (يوم يأتي بعض ايت ربك لا ينفع نفسا إيمنها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمها خيرا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك يعني: طلوع الشمس من مغربها، فإنها إذا طلعت من مغربها، آمن الناس كلهم، ولكنه: «لا ينفع نفسا إيمنتها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . 9- أنه لابد في التوبة مـن الإصلاح؛ لقولـه ـ تعالى ـ: (إلا الذين تابوا وأصلحوا »، فإذا ترتب على فعل المعصية فساد شيء من الأشياء، فلابد أن يقوم التائب بإصلاح هذا ما أمكنه.
١٠ـ أن من كانت معصيته بذنب، فلا بد أن يأتي في التوبة بما يقابل هذا الذنب، وهؤلاء كانت معصيتهم بـالكتان ـ كـتـان مـا أنـزل الله - فلهذا لا بد أن يبينوا؛ ولهذا قال: «وأصلحوا وبينوا»، فـإن قال: إنـه تائب عن كتان ما أنزل الله، ولكنه لم يبين؟ فنقول: إن هـذه التوبـة لا تنفعه؛

لأنه لا بد أن يصلح الإنسـان مـا فـسـد عـلى يـديـه بمعصيته،
فالكاتم لا يمكن أن تقبل توبته وتكون صحيحة، إلا إذا بيـن. ١١ـ أن من تاب من ذنب، فإن الله يتوب عليه، وعد من الله ـ عز وجل ؛ لقوله ـ تعالى ـ: «فأولئيك أتوب عليهم ، وهذا عام في كل

ج
زمان، فمن تاب ـ من أي ذنب كان ـ فإن الله يتوب عليه؛ لقول الله ـ تعالى : (قل يعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر:53].
ج

١٢ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: «التواب»، و«الرحيم». فـ«التواب» هو الذي يوفق للتوبة، ويقبل التوبة؛ والدليل على ذلك: أن الله - سبحانه وتعالى ـ قال ـ في الذين خلفوا في غزوة تبوك ـ: ه وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [التوبة:118]، فقوله: «ثم تاب عليهم، أي: قدر لهم التوبة حتى قاموا بها؛ ولهذا قال: «ثم تاب عليهم ليتوبوا .

أما المعنى الثاني للتوبة فهو: قبول التوبة، ودليله قوله - تعالى -: وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ [الشورى:35].
وأما «الرحيم»، فهو: ذو الرحمة، ورحمة الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة، تشمل كل الخلق، حتى الكفار فإنها تشملهم. وخاصة: بالمؤمنين، لا تشمل الكافرين؛ ودليلها قوله ـ تعالى ـ: وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ [الأحزاب:43].

ثم قال ـ تبارك وتعالى -: « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئيك عليهم لعنه الله والملتيكة

والناس أجمعين و خلدين فيها لا تخفف عنهم
العذاب ولا هم ينظرون = ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢]. «إن الذين كفروا»، أي: كفروا بالله، وبها يجب الإيمان به. والكفر نوعان: نوع جحود، ونوع استكبار.
فالجحود: يتعلق بالأخبار.

والاستكبار: يتعلق بالأوامر والنواهي.
فمن كذب خبرا من أخبار الله أو أخبار رسوله الثابتة عنه ، فإنه يكون كافرا، وكفره هذا كفر جحود وتكذيب، ومن صدق، ولكن استكبر، فإنه يكون كافرا، إذا استكبر عن جميع ما أمر الله به، وكفره هذا كفر استكبار، ومنه كفر إبليس؛ حيث قال الله له مع جملة الملائكة: * اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكفرين ﴾ [البقرة:34]. وماتوا وهم كفار»، يعني: استمروا في كفرهم حتى الموت. «أولتيك عليهم لعنه الله والملتيكة والناس أجمعين * كل يلعنهم - والعياذ بالله ـ كل يتبرأ منهم، بل هم أنفسهم في النار «كلما دخلت أمه تعنت أختها ﴾ [الأعراف:38].
خالدين فيها ، أي: في اللعنة؛ وهي الطـرد والإبعـاد مـن رحمـة

الله، هم خالدون فيها، والعياذ بالله.
ولا تخفف عنهم العذاب لا يخفف عنهم؛ أي: بقلة ألمهم.

ولا هم ينظرون »؛ أي: لا يمهلون بتأخير العذاب عـنهم، بـل العذاب يعجل ـ والعياذ بالله ـ، ويؤاخذون على ما فعلوه. في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي: ١ـ أن الكافر لا يستحق الوعيد إلا إذا مات على الكفر؛ لقوله: إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار »، هذه هي
القاعدة العامة في
الشريعة: أن الإنسان لا يعذب عذاب الكفرة، إلا إذا مات على الكفر،
ومن
ذلك قوله ـ تعالى ـ: (ومن يرتدد منكم عن دينه، قيمت وهو كافر فأولتيك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولتيك أضحب النّار هم فيها خلدون ﴾ [البقرة:٢١٧].
٢- خلود أهل النار في لعنة الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: «خلدين فيها » وقد وردت آيات ثلاث تدل على أن عذاب النار مؤبد، ففي سورة النساء قال الله ـ تعالى ـ: «إن الذين كفروا وظلموا لم يكن

الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا - إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا [النساء:168-169]، وفي سورة الأحزاب قال الله ـ تبارك وتعالى -: ﴿إنّ الله لعن الكفرين وأعد لهم شعيرا و خلدين فيها أبدا [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي سورة الجن قال الله ـ تعالى ـ: «إلا بلغا من الله ورسليه، ومن يعص الله ورسوله، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا [الجن:٢٣]؛ ولهذا لا يعرف عن أهل السنة وأئمة السلف، إلا هذا القول، أي: القول بأن جهنم يخلد فيها أصحابها أبد الآبدين ـ والعياذ بالله .

ج

١٨

٥٦٥

= 1566ا

أحكام من القرآن الكريم

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة: 163].

والخطاب هنا لجميع البشر : يخبر الله ـ تعالى ـ أنه إله واحد، ويؤكـد ذلك بقوله: «لا إله إلا هو»، أي: لا إله حق إلا هو، والإلـه بمعنى: المعبود حبا وتعظيها.

ويبيـن ـ عز وجل ـ بعد ذلك أنه الرحمن الرحيم، وفي هـذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن ألوهيته وربوبيته مبنية على الرحمـة بعبـاده؛ ولهـذا ترى ما أمر الله به أمرا ليس بشاق على الناس، بـل إذا وجـدت المشقة، وجد التسهيل؛ لقول النبي ﷺ: «إن هـذا الـديـن يـسـر»، وقوله ﷺ وهو يبعث البعوث: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»، وقوله لعمران بن حصيـن: «صـل قـائما، فإن لم تستطع فقاعـدا، فـإن لم
تستطع فعلى جنب»(٣).

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي: 1ـ إثبات ألوهية الله، ووحدانيته في هذه الألوهية؛ لقوله - تعالى -: وإلهكم إله واحد *.

٢ـ أنه ينبغي في الكلام الهام أن يؤكد بها يؤيده؛ لقوله: «لا إله إلا
نوع

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).
(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢١٧). (٣) رواه البخاري كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعدا صلّى على جنب، رقم (١٠٦٦).

3ـ إثبات اسمين من أسماء الله، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وإثبات ما تضمناه من صفة، وإذا ذكر هذان الاسان جميعا، صار الأول للصفة، والثاني للفعل، وإن أفرد أحدهما شمل الآخر، وعلى هذا فيكون: «الرحمن»، أي: ذو الرحمة الواسعة، و«الرحيم»، أي: الموصل رحمته لعباده، وفي «الرحيم» إثبات أن رحمة الله - عز وجل ـ تتعدى للمرحوم؛ ولهذا قال الله ـ تبارك وتعالى -: * وربك الغفور ذو الرحمة لويؤاخذهم بما كسبوالعجل لهم العذاب ﴾ [الكهف:٥٨]. ٤- إثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ في الألوهية؛ لقوله: (وإلهكر إله
واحد *.

5ـ الرد على المشركين الذي يعبدون مع الله إلها آخر، والعجب أنهم يعبدون مع الله إلها آخـر، ويقولون في حـق النبي ﷺ: «أجعل الألهة إليها وجدا إن هذا لشيء عجاب» [ص: 5]، فيقـال: إن العجـاب كـل العجاب، ما أنتم عليه من الشرك، كيف تعبـدون مـع الله غيره، وهـو خالق السموات والأرض، المتفرد بخلقها؟!

٦ـ تأكيد الجملة الخبرية بما يؤيدها، لا سيما في الأمور الهامة، ولا يعد هذا تكرارا في الكلام؛ لقوله: «لا إله إلا هوه. ـ الرد على النصارى المثلثين،الذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: (والهكر إنه وجد)

ثم قال الله ـ تعالى ـ: « إن في خلق السموات والأرض واختلف اليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الريح والشحاب المسخر بين السماء والأرض لايت لقوم يعقلون ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه جمل تدل على آيات عظيمة، لكن لا ينتفع بهذا إلا أهل العقل؛ لقوله: «لايت لقوم يعقلون).
فالأول قوله ـ تعالى ـ: «إن في خلق السموات والأرض ، في خلق السموات والأرض آيات عظيمة ولايت لقوم يعقلون كيف جعل الأرض على هذا الوجه، وأرساها بالجبال؟! وجعل الساء على هذا الوجه، وزينها بالنجوم؟! وكيف تكون هذه الأرض على ما فيها من سعة عظيمة، تكون ملجأ للخائفين، ومزدرعا للحارثين؟! وكذلك السماء بأفلاكها ونجومها، وشمسها وقمرها، كلها إذا تأملها الإنسان، وجد فيها آيات عظيمة.
وقوله: «واختلف اليل والنهار» أيضا فيه « ءايت لقوم يعقلون [الجاثية: 5]. اختلاف الليل والنهار: بالطول والقصر، كذلك ـ أيضا ـ با يحدث فيها من حوادث، وحروب، وأمن، ورخاء، وشدة، وقحط، وغيث، وغير ذلك.
والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس» وهذا ـ أيضا ـ من

الآيات لقوم يعقلون»، الفلك: هي السفينة، تجري في البحر، في هذه المياه العميقة الواسعة التي تتلاطم بالأمواج، وهذه الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس: بحمل بني آدم من جهة إلى جهة، وتحمل الأرزاق من بلد إلى بلد، وغير ذلك من الآيات العظيمة في «والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس ؟ . وقولـــه: «وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ هذا ـ أيضا ـ من آيات الله؛ فهذا المطر الذي ينزل على الأرض القاحلة الميتة الهامدة، فتصبح الأرض مخضرة، كل هذا من آيات الله - عز وجل -، وقول الله ـ عز وجل : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، يعني: في هذا ـ أيضا ـ آيات لقوم يعقلون، ويريد بالماء الذي ينزل من السماء، يريد به ـ تبارك وتعالى - المطر، يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتجد الأرض هامدة، يابسة، فإذا بها مخضرة تهتز، في هذا آيات على كال قدرة الله ـ عز وجل ـ، وعلى قدرته على إحياء الموتى؛ كما يستدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك في آيات كثيرة من القرآن.

وبث فيها من كل دابة »، أي: نشر في الأرض من كل دابة من الدواب الكثيرة، التي لا يمكن تعداد أجناسها، فضلًا عن أفرادها، وهذه الدواب كلها رزقها على الله ـ عز وجل ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلل في ع

كتب مبين * [هود:6].
والدابة هنا: اسم لكل ما يدب على الأرض، من صغير وكبير،

وإنسان وحيوان.
وتصريف الريح ، يعني: تحريفها من جنوب إلى شال، ومن شرق إلى غرب، وهناك تصريف آخر: من حارة إلى باردة، وتصريف ثالث: من مثيرة للسحاب، إلى ملقحة له، كل هذا التصريف فيه آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذا التصريف للرياح، لو اجتمعت الخليقة كلها على أن تأتي بمثله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، لو جمعت جميع المكائن النفاثات، وبكل قواها، ما استطعت أن تأتي بأدنى ريح من هذه الرياح.

والشعاب المسخر بين السماء والأرض ؟ هذا السحاب الذي ينسحب في الجو حاملًا المياه العظيمة، بل قد قال الله ـ تبارك وتعالى -: ه وينزل من السماء من جبال فيها من بري فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ [النور:43]، هذا السحاب المسخر المذلل بأمر الله ـ تعالى ـ

يوجهه حيث شاء.
في هذا كله يقول الله ـ عز وجل ـ: «لايت لقوم يعقلون»، أي: لقوم عندهم عقول، يستدلون بهذه الأشياء وغيرها، على قدرة الله، تبارك وتعالى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي: 1 ـ ما أشار الله إليه في آخرها: «لايت لقوم يعقلون» . ٢ـ الإشارة إلى خلق السموات والأرض، وأن خالقها ـ جل وعلا ـ له من القدرة العظيمة ما يبهر العقول، ولقد بين الله ـ تعالى ـ: أنه خلقها في ستة أيام، وما مسه من لغوب، جل وعلا).

3- العبرة باختلاف الليل والنهار على الوجه الذي شرحناه فيها سبق. وفيها ـ أيضا ـ نعمة الله - سبحانه وتعالى ـ بهذا الاختلاف، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك في قوله: « وهو الذي جعل اليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

٤ـ بيان نعمة الله ـ تعالى ـ بالفلك التي تجري في البحر بـا ينفع الناس، حيث تنقل الناس من بر إلى بر، وتنقل الأطعمة وما يحتاجه الناس، حتى ينتفع الصادر منهم ذلك، والوارد إليهم. 5ـ تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ بإنزال الماء من الساء، وإحياء
الأرض به.

6ـ بيان حكمة الله حيث جعل هذا المطر ينزل من علو، ليشمل ما ارتفع من الأرض، وما نزل منها.
ـ بيان إحاطة علم الله - سبحانه وتعالى ـ بكل شيء في هذه

(١) سورة (ق)، آية: 38.

الأرض: من الدواب الصغيرة والكبيرة؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ نشر في هذه الأرض هذه الدواب، حتى إن الإنسان لينزل أحيانا في أرض قفر ليس حولها أحد، فإذا به يرى النمل، ويرى غيرها مما خلق الله ـ عز

وجل ـ.
٨- بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ بتصريف الرياح، وهذا التصريف له حكم عظيمة؛ لأنه من فعل الله ـ تعالى ـ وكل فعل من أفعال الله، فإنه مقرون بالحكمة البالغة؛ لأن من أسماء الله: «الحكيم»، وهو: المحكم المتقن، لكل ما صنع، ولكل ما شرع.
9ـ أن هذا السحاب مسخر، أي: مذلل، يصرفه الله ـ تعالى ـ حيث يشاء، ولا أدل على ذلك من

استسقاء النبي ﷺ في خطبة الجمعة، حيث جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهم، أغثنا ـ ثلاث مرات ـ فما نزل من المنبر إلا والمطر يتحدر من لحيته». وكذلك قصة الرجل صاحب الحديقة: حين سمع رجل آخر صوتا من السحاب يقول: اسق حديقة فلان، فنزل المطر في حدة، ثم جرى في شرج منها حتى أروى تلك الحديقة، فجاء الذي سمع الصوت إلى صاحب الحديقة يسأله: من أنت؟ حتى ذكر له الاسم

(١) رواه البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء رقم (٨٩٧).

الذي سمعه من السماء، فلما سأله صاحب الحديقة: ما شأنك؟ أخبره بأنه سمع صوتا من السحاب، يقول: اسق حديقة فلان، ثم سأله: ماذا كنت تصنع في هذه الحديقة؟ فأخبره أنه يجعلها أثلاثا: يجعل ثلثا للقيام عليها، وثلثا لنفقته وعياله، وثلثا يتصدق به(١). ١٠ـ فضيلة العقل، وأن العقل يهتدي به صاحبه إلى معرفة آيات الله ـ عز وجل ـ، وقد بين الله - سبحانه وتعالى ـ أنه لا يعقل هذه الأمثال، وهذه الآيات إلا العالمون، فقال ـ تعالى ـ: « وتلك الأمثل نضربها للناس وما يعقلها إلا العلمون ﴾ [العنكبوت:43].

قال الله ـ عز وجل ـ: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا *
حبونهم كحب الله والذين ءامنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾ [البقرة:165]. في هذه الآية يذكر الله - سبحانه وتعالى ـ أن من الناس ـ يعني: أن بعض الناس ـ يتخذ من دون الله أندادا، أي: نظراء وأمثالًا، يسوونهم بالله ـ عز وجل ـ، في المحبة؛ فيحبونهم كحب الله، ويشير بهذا ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أولئك العابدين لأصنامهم، الذين يحبونها كـا يحبون الله ـ عز وجل ـ، فيجعلونها شريكة مع الله في المحبة.
قال الله - تعالى -: (والذين ءامنوا أشد حبالله»، وهذا كالاستثناء
(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤).

الذي يخرج المؤمنين الذين يحبون الله ـ عـز وجـل ـ، أشـد حبـا الله مـن هؤلاء لأصنامهم، أو مـن هـؤلاء الله؛ يعني: أن المؤمنين يحبون الله، ويتعلقون به أشد حبا وتعلقا من هؤلاء بأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين الله ـ عز وجل -، محبة تقتضيها الفطرة والشريعة، أما محبة هؤلاء لأصنامهم

كحب الله، فهي محبة لا ترتضيها الشريعة، ولا تقتضيها الفطرة. ويجوز أن يكون المعنى:
﴿والذين ءامنوا أشد حبالله »، أي: أشـد حبا الله من هؤلاء، وذلك لأن محبة المؤمنين الله، محبة خالصة لا يشركها محبة أحد من الخلق، ومحبة هؤلاء الله ـ تعالى ـ محبـة فيهـا شـرك، بحيـث يحبون هـذه الأصنام كمحبة الله، وإذا كانت الآيـة تحتمـل المعنيين، وأحدهما لا ينافي الآخر، فإن الواجب حملهـا عـلى المعنيين جميعا؛ لأن ذلك أعم وأشمل.
ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب»، يعني: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا باتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله .
إذ يرون العذاب»، أي: يشاهدونه، ويعاينونه يوم القيامة. وأن القوة لله جميعا »، وأن أصنامهم ليس لها قوة ولا حول، بل أضعف وأهون من أن يكون لها قوة، وقد قال الله - تعالى -: ـ ويتأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن تخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا
ج

يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج:73]، وهنا يقول: «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا »، وأنه لا قوة لأصنامهم، فتنقذهم من عذاب الله.
وأن الله شديد العذاب»، يعنى: ويرون أن الله شديد العقاب. يعني: لو رأوا ذلك، لتبدلت أحـوالهم، ولعرفـوا أنهـم عـلى خطأ
وضلال.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي: ١- تحريم تشريك المحبة الله ـ تعالى ـ مع غيره، بحيث

يتخذ أصناما يحبها كحب الله، سواء كانت هذه الأصنام من الشجر، أو الحجر، أو البشر، فمن أحب أحدا كمحبة الله ـ عز وجل ـ فإنه قد أشرك مع الله ـ

تعالى ـ في المحبة، ويسمى هذا النوع من الشرك: شرك المحبة. ٢- أنه يجب إخلاص المحبة الله ـ عز وجل ـ والمراد بها: محبة التذلل والخضوع والعبادة، وأما المحبة الطبيعية التي تكون من الإنسان وبين ما يلائمه، من بشر، أو مأكول، أو ملبوس، أو مركوب، فهذه لا تعلق لها بهذا الباب، وكذلك محبة الإنسان لأبنائه، وبناته، وأصحابه،

لا تدخل في هذا الباب؛ لأنها ليست محبة مع الله، وهي من نوع آخر . 3- شدة محبة المؤمنين الله ـ عز وجل -، وأنها محبة كاملة، أكمل من محبة هؤلاء لأصنامهم، ومحبة خالصة، وأخلص من محبة هؤلاء الله - عز وجل - .

٤ـ الوعيد الشديد لهؤلاء الذين جعلوا الله شريكا في المحبة، يؤخذ ا
من قوله ـ تعالى ـ: «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب؟.

هـ أن هؤلاء الذين جعلوا الله شريكا في المحبة كانوا ظالمين، أي: ظالمين لأنفسهم، حيث انتقصوها حقها، وهكذا كل عاص الله، فإنه ظالم لنفسه؛ لأن نفسه أمانة عنده، يجب أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك، فتهلك؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في آيات متعددة: وما ظلمنهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ [هود:١٠١]، (وما ظلمنهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ [الزخرف:76].

6- إثبات أن القوة الله ـ تعالى ـ جميعا، فجميع القوى الله ـ عز وجل ـ حتى ما يجعله، أو يخلقه في بعض المخلوقات من القوى، فإنه لله، ملكه، لو شاء لسلب ذا القوة قوته؛ ولهذا يقول المؤمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

- التحذير من عذاب الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: «وأن الله شديد العذاب، وقد بين الله - سبحانه وتعالى ـ في آيات متعددة، أن شدة عذابه إنما تكون لمن يستحقه من الكفار والعتاة، ولكنه

غفور رحيم؛ كا قال الله - تعالى -: « نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم بي وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ [الحجر:49-50]، وقال -
ذلك
مع

تعالى -: «أعلموا أن الله شـديد العقاب وأن الله غفور
رحيم * [المائدة:٩٨].
هـ أن المحبة تتفاضل، فيحب الإنسان شيئا أكثر مما يحـب الـشيء الآخر. وإذا كانت محبة الله ـ تعالى ـ من الإيمان، ومن أفضل العبادات، وكانت تتفاضل، فهو دليل على أن الإيمان يتفاضل، وهو مذهب أهـل السنة والجماعة، فقد صرح أهل السنة والجماعة بـأن الإيمان يتفاضـل وأنه يزيد وينقص، وأن من أسباب زيادتـه: طاعـة الله ـ عـز وجـل ـ ومن أسباب نقصانه: معصية الله ـ عـز وجـل ـ بـل إن الإيـان يـزيـد وينقص حتى في العلم الحاصل في القلب، فإن العلم الحاصل في القلب يتفاوت بحسب الطرق الموصلة إليه، فالإنسان يعلم بخبر الاثنين أكثـر
مما يعلم بخبر الواحد، وكلما تعدد المخبرون، ازداد الإنسان يقينا. 9ـ أن يحذر الإنسان ممـا وقـع لهـؤلاء الذين جعلوا الله شريكـا في المحبة، فأحبوا الأنداد كا يحبون الله، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا
من أحبابه وأوليائه، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب .

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب و وقال الذين اتبعوا لو و
أن لنا كرة فتتبرأ منهم كما تبره وا منا كذالك يريهم الله أعمالهم حسرت عليهم وما هم بخرجين من النار ﴾ [البقرة: 166 - 167].

هذه الآية: آية البراءة، أي: براءة أهل الشرك ممن اتخذوهـم أندادا يوم القيامة، وكذلك براءة المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة. يقول الله ـ عز وجـل ـ: «إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا »، «إذه، هذه مفعول لفعل محذوف، والتقدير : اذكر إذ تبرأ الـذين اتبعـوا، وهم: السادة القادة الذين يقودون الناس، سواء قادوهم باسم الشرع، وهم محرفون للشرائع؛ كأئمة اليهود والنصارى ونحوهم، أو قـادوهم باسم الإمرة والسلطة؛ كأمراء السوء.

الذين اتبعوا من الذين اتبعوا : يتبرؤون منهم، وذلـك أن الذين اتبعوا يحتجون على الذين اتبعوا، ولكن الذين اتبعـوا يتبرؤون منهم حين يرون العذاب.

وقوله ـ تعالى ـ: «ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب»، يعني:

أن المتبعين رأوا العذاب، وأنهم على ضلال. وتقطعت بهم الأسباب ؟ ؛ قال ابن عباس ـ رضي الله عنها -: يعني: المودة؛ يعني: أن المحاب التي كانت بينهم وبين هؤلاء المتبوعين، تقطعت؛ لأن هؤلاء الأتباع يظنون أن هؤلاء المتبوعين ينفعـونهـم يـوم القيامة، ولكنهم لا ينفعونهم، بل يتبرؤون منهم، وحينئذ يكون عليهم اتباعهم حسرة؛ لأنهم يندمون حين لا ينفع الندم. وقال الذين اتبعوا لو أن لناكرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ؟: «لو»، هنا: للتمني، يعني: قـالـوا: ليـت لنـا كـرة، أي: رجوعـا إلى

الدنيا، فنتبرأ منهم، كما تبرؤوا منا في الآخرة، ولكن أنى لهم ذلك، بـل لا يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: «كذالك يريهم الله أعملهم حسرات عليهم وما هم بخرجين من النار، أي: هم من أهلهـا
الذين لا يخرجون منها.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي: 1ـ التحذير من اتباع أهـل الـسوء؛ لأن هؤلاء المتبوعين قـادوا أتباعهم إلى ما وصلوا إليـه مـن العـذاب والحسرات، ودخـول الـنـار دخولًا لا يخرجون منها.

٢ـ أن كل من كان بينه وبين شخص علاقة لغير الله، فإنه سوف يندم على هذه العلاقة، ويتبرأ كل من الآخر؛ ويشهد لهذا قول الله - تعالى -: * الأخلاء يومين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين *
[الزخرف:67].

3ـ أن كل سبب ليس مبنيا على أصل صحيح، فإنه سوف ينقطع، ولا يوصل صاحبه إلى مقصوده؛ لقوله ـ تعالى ـ هنا: «وتقطعت بهم الأسباب .

٤ـ تتابع الحسرات على هؤلاء التابعين، الذين ضلوا بضلال متبـــوعيهم؛ لقوله : كذالك يريهم الله أعملهم حسرات عليهم »، والحسرة: شدة الندم.
هـ بيان أن هؤلاء المتبوعين ليسوا يدعون إلى هدى وصلاح، وإنا

يدعون إلى ضلال وفساد، ووجه ذلك: أن الله أخبر بأن هؤلاء التابعين ليسوا بخارجين من النار، فإذا كان التابعون لا يخرجون من النار، فالمتبوعون من باب أولى.
6- الإشارة إلى أن النار مؤبدة؛ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون منها ـ وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في آيات ثلاث أن أصحاب النار خالدون فيها أبدا ـ دل ذلك على أن النار لا تفنى؛ كا هو مذهب أهل السنة
والجماعة.

قال الله ـ تعالى ـ: (يأيها الناس كلوا مما في الأرض خليلا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (إنما يأمركم بالشوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾
[البقرة:١٦٨-١٦٩]. قوله: «يأيها الناس) يعم المؤمنين والكافرين. كلوا مما في الأرض خليلا طيبا » الأمر هنا للإباحة، أي: كلوا مما أخرج الله من الأرض حال كونه حلالًا لكم طيبا، وليس بخبيث، والإشارة في قوله: «طيبا» إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون مكسبه على وجه مباح حلال؛ لأن الكسب المحرم خبيث . ولا تتبعوا خطوات الشيطن»، أي: لا تتبعـوا الـــشيطان في خطواته، كلا خطا خطوة، مشيتم عليها؛ فإنه لا يجركم إلا إلى النار، وبئس القرار؛ ولهذا قال: «إنه لكم عدو مبين * ومن المعلوم أن

١٥٨١

عدوك إذا خطا واتبعته، سيوقعك في المهالك. ثـم بيـن ـ تبارك وتعالى ـ ماذا يدعو إليه الشيطان، فقال: «إنما يأمركم بالشوء والفحشاء » : بالسـوء، أي: بالعمـل الـسيئ، وهـو مـا دون الفحشاء، والفحشاء: العمـل الكبيـر الـذي يـستفحش في العقـول والشرائع.
وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»، أي: وأن تفـتـروا عـلى الله كذبا، إمـا في ذاته، أو في أسـائه، أو في صـفاته، أو في أحكامه، أو في أفعاله؛ فإن الشيطان يدعو إلى أن يقول الإنسان على ربـه مـا لا يعلـم، وهذا من المحرمات في جميع الشرائع.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي: ا- وجوب العناية بها ذكر الله ـ تعالى ـ فيها من أحكام، ووجه ذلك أن الله ـ تعالى ـ صدرها بالنداء، والتصدير بالنداء يـدل عـلى أهميـة مـا وجه إلى المنادى.

،

٢- أن الخطاب في الأكل مما في الأرض يعم المؤمنين والكافرين؛ لقوله - تعالى -: «يتأيها الناس ، وكلمة «الناس » عامة، لكن جاء في آيات أخرى توجيه ذلك للمؤمنين، فقال - تعالى -: (يأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبت ما رزقتكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ [البقرة: ١٧٢]، فهل نخصص عموم هذه الآية بالآية الأخرى، ونقول: إن المؤمنين يؤذن لهم بالأكل مما في الأرض، وأما

١٥٨٢

أحكام من القرآن الكريم

الكافرون: فإنه لا يحل لهم الأكل مما في الأرض، بل سيحاسبون على ذلك، أو نقول: إن هذه الآية عامة، وأن ما في الأرض يأكل منه الكافرون والمؤمنون، على أنه حلال لا يحاسب عليه الكافر؟ ولكن المعنى الأول أصح، وأن المراد بالناس هنا إما عموم الناس، وخصص بالمؤمنين، أو أن المراد بها الخصوص؛ يعني: عبر بـ«يتأيها الناس »، والمراد بها: يتأيها الذين ءامنوا ﴾، ويدل لهذا قول الله ـ تبارك وتعالى وليس على الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جناح فيما طعموا [المائدة:93]، ومفهوم قوله ـ تعالى ـ: «ليس على الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جناح فيما طعموا أن غير المؤمنين العاملين للصالحات، عليهم جناح فيما طعموا، ويؤيد ذلك ـ أيضا ـ قوله ـ تعالى ـ: « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبنت من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحيوة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وعلى هذا فيكون ما في الأرض

حلالًا للمؤمنين، ليس فيه تبعة عليهم، وحلالا للكافرين، بمعنى: أننا لا نمنعهم من تناوله، ولكن عليهم تبعة، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة، فيقال لهم: لم أكلتم نعمة الله وكفرتم به؟ 3ـ أن كل ما في الأرض حلال لنا، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ [البقرة:٢٩]، وعلى هذا فيكون الأصل فيها في الأرض أنه حل لنا، فمن ادعى تحريم شيء مما في الأرض، قلنا له: انت بالدليل، فإن جاء بالدليل، وإلا فالأصل الحل، و

ولا فرق في ذلك بين الحيوان والجاد، والأشجار والثمار، وغيرها، والأصل فيها الحل، حتى يقوم دليل على المنع، والحيوانات كلها، الأصل فيها: الحل حتى يقوم دليل على المنع. ٤- الإشارة إلى أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال على وجه طيب، والطيب هنا ضد الخبيث، والخبيث : كل ما يحرم من تصر ف؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث»(١)، فيستفاد من هذا أنه يجب أن يكون
ما تأكله مما في الأرض من الحلال، مكتسبا على وجه مشروع. ويتفرع على هذه القاعدة: أنه لا يحل للإنسان ما اكتسب بوجه محرم، فمن اكتسب مالًا بالغش، أو الكذب، أو الربا، أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يحل له أكله، بل هو حرام عليه، لكن من جاءه موعظة من وانتهى وتاب، فقد قال الله ـ تعالى ـ في الربا: * فمن جاءه موعظة من ربه، فانتهى فله، ما سلف وأمره إلى الله ﴾ [البقرة: ٢٧٥].
الله

5ـ تحريم اتباع خطوات الشيطان، فإن قال قائل: بأي طريق نعلم خطوات الشيطان؟ قلنا: با ذكر الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ [النور:٢١]، فإذا هممت بمعصية صغيرة، فذلك من أمر الشيطان، وإن هممت بمعصية كبيرة

(١) رواه مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب ...، رقم (١٥٦٨).

=

فاحشة، فذلك ـ أيضا ـ من أمر الشيطان، فكل معصية تهم بها، فإنها من أمر الشيطان، فإن اتبعت هواك فيها، فقد اتبعت خطوات الشيطان.
6 - التحـذيـر مـن الـشيطان؛ لقوله: «إنه لكم عدو مبين»، والتحذير من الشيطان يتفرع عنه التحذير من أولياء الشيطان، الذين يأمرون بالفحشاء والمنكر؛ فإن هـؤلاء هـم أولياؤه، فالواجـب عـلى المسلم الحذر من الشيطان؛ لأنه عـدو، والحـذر مـن أولـيـاء الـشيطان؛ لأنهم ـ أيضا ـ عدو.
ويدل لهذا قوله ـ تبارك وتعالى -: ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ [المائدة: 51]، وقوله - ﮯ
تعالى -: ﴿ يتأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة * [الممتحنة:1]، وقوله ـ تعالى ـ في المنافقين: « هم العدو فاحذرهم قتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [المنافقون:4]، فالواجب الحذر من الشيطان وأتباعه؛ لأنهم أعداء لنا.
- بيان ما يأمر به الشيطان، وهو: أنه يأمر بالسوء، وهو: المعاصي الصغار، والفحشاء، وهي: المعاصي الكبار.
٨ـ تحريم القول على الله بلا علم، وهذا يشمل تحريم القول عليه في ذاته، وتحريم القول عليه في أسـائه، وتحـريم الـقـول عـليـه في صـفـاته، وتحريم القول عليه في أحكامه الكونية والشرعية، وذلـك مـن قـولـه ـ

تعالى -: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»؛ فإن هذا يشمل القـول على الله في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وأحكامه الكونية والشرعية : أما القول على الله في ذاته: فأن يقول قائل: إن ذات الله ـ تعالى ـ، مثل ذواتنا، يعني: مكونة من أجزاء، ينفصل بعضها عن بعض، ويبقى بعضها دون بعض، وما أشبه ذلك، وهذا محرم نفاه الله ـ تعالى ـ عن نفسه في قوله ـ تعالى ـ: « ليس كمثله شيء وهو السميع البصيره [الشورى:11]، ونهى ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، في قوله:
ه فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النحل:74]. أما القول على الله في أسمائه: فيشمل أن يثبت الإنسان الله أساء لم يسم بها نفسه، كما ساه النصارى: «آبا»، فهم

يعنون بالأب، يعني: الرب ـ عز وجل ـ؛ لأنهم يعتقدون أن المسيح ابن الله، فيكون قولًا على الله بلا علم، ويشمل القول على الله في أسمائه ـ أيضا ـ أن ينكر شيئا من أسمائه، كما فعل أهل الجاهلية، حين قيل لهم: « أسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان:60]، فأنكروا أن يكون «الرحمن» من أسمائه، وهذا قول على الله بلا علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه. ومن القول على الله بلا علم في صفاته: أن نقول: إن صفات الله ـ تعالى ـ كصفاتنا، كما قاله أهل التمثيل، فقالوا: إن كل ما ذكر الله من أوصافه، فإنه مماثل لصفاتنا؛ فالوجه، واليد، والعين، كلها مثل ما لنا من ذلك، وقد كذبوا فيها ادعوا، وخالفوا المسموع والمعقول فإن الله ـ

تعالى ـ يقول ـ وهو أعلم بنفسه) (ليس كمثله شيء وهو السميع
البصير [الشورى:11].

وينهانا ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، وأن ذلك لا
يمكن؛ لأننا لا نعلم، والله ـ تعالى ـ يعلم أنه لا مثيل له. ويشمل القول على الله بلا علم في صفاته ـ أيضا ـ: إنكار الصفات، حيث زعم أهل التعطيل، الذين أنكروا أن يكون الله صفات، أو أثبتوا بعض الصفات وأنكروا بعضها بحجة أن العقل يمنع من ثبوتها الله، فقالوا على الله في ذلك ما لا يعلمون؛ لأننا نقول لهم: أين العقل الذي يمنع أن يكون الله متصفا بصفات الكال؟! كل عقل يمنع أن يكون الله متصفا بصفات الكال، فهو عقل فاسد، وعقل مريج، وإلا فإن العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات ـ ونعني بالشهوات: الإرادات السيئة ـ لا يمكن أن ينكر ما أثبت الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ

ومن القول على الله بلا علم، في أحكامه القدرية: أن نثبت لشيء من الأشياء سببية، دون علم من الله، فيقول القائل مثلًا: إذا فعل الإنسان كذا، حدث كذا، وهو لم يعلم ذلك، لا بنص، ولا بتجربة، فيكون قد قال على الله ما لا يعلم، ومن ذلك ما يفعله بعض المشعوذين، بأن يعلق التمائم الشركية على المرضى الذين فيهم المرض في أجسامهم، أو في نفوسهم، ويدعي أن ذلك يزيل هذا المرض، دون

١٥٨٧

علم من شرع، ولا علم من واقع، فيكون قد قال على الله في أحكامه القدرية ما لا يعلم.

وأما القول على الله با لا يعلم الإنسان، في الأحكام الشرعية: فا أكثرها اليوم!! ما أكثر الذين يتصدون للفتوى،وهم من أجهل الناس!! فيكونون قد قالوا على الله بلا علم، والمفتي لعباد الله، با يزعم أنه شريعة الله، هو معبر عن الله في الحقيقة؛ لأنه يقول: هذا حكم الله، أو هذا حرام حرمه الله، أو ما أشبه ذلك، فلا بد أن يكون على علم من كتاب الله، أو سنة رسوله ، أو الإجماع، أو القياس الصحيح، أما أن يفتي بلا علم، فإنه يدخل في أوامر الشيطان، ويكون عبدا مطيعا للشيطان، ولقد كان السلف الصالح بورعهم، وتوقي المسؤولية، يتدافعون الفتوى، كل واحد منهم لا يريد أن يكون هو المفتي، وهم يعلمون أن هذا المستفتي سيجد من يفتيه بكتاب الله، وسنة رسوله و، وإلا فمن المعلوم: أنه لا يجوز للإنسان إذا سئل عن علم يعلمه والسائل محتاج إلى بيانه، أن يكتمه، فقد ذكر الله ـ تعالى ـ أن من كتم ما أنزل الله، فإن عليه الوعيد الشديد.

وعلى هذا فإننا نحذر إخواننا طلبة العلم ـ والعامة ـ أيضا ـ أن يفتوا بلا علم، بل عليهم أن يلتزموا الورع، وأن يقولوا لما لا يعلمون: لا نعلم؛ فإن هذا ـ والله ـ هو العلم. لكن إذا كان الإنسان عالما بحكم المسألة من عالم يثق بقوله، وأراد أن ينقل قول هذا العالم للمستفتي،

١٥٨٨||

فإن هذا لا بأس به، مثل أن يأتيه شخص ويقول: ما تقول في كذا وكذا؟ والمسؤول عامي، لكن يقول: سمعت الشيخ الفلاني يقول: إن حكمه كذا وكذا ـ وهو متيقن أن هذا: ما سمعه من العالم ـ فإن هذا لا بأس به، ويكون هذا راويا، لا مفتيا. وعلى كل حال، فإني أعيد وأكرر: التحذير من الفتوى بغير علم، وأقول للإنسان: أنت في حل ـ إذا لم يكن عندك علم ـ أن تصرف المستفتي إلى شخص آخر. وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن شيء ولا علم له به، يقول: اسأل العلماء. وهذا يدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعين شخصا معينا عندما يحيل الناس إلى استفتاء شخص آخر، بل يقول: «اسأل العلماء». اللهم إلا أن يخشى أنه إذا قال: «اسأل العلماء»، أن يذهب هذا السائل إلى شخص جريء يتجرأ على الفتوى بغير علم، فهنا يعين من يحيله عليه، فيقول: اذهب إلى الشيخ الفلاني، فعنده العلم.

**

أحكام من القرآن الكريم

**

قال الله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا أولوكات اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ←
[البقرة: ١٧٠].
«وإذا قيل لهم » أي: لهؤلاء الـمـتـبـعـيـن لأهـوائهم، الـمـقـتدين
بكبرائهم، من الآباء، أو غيرهم: «أتبعوا ما أنزل الله ؟ . «قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا»، «بـل»
هنـا لـلإضراب

سورة البقرة

١٥٨٩

الإبطالي، أي: بل لا نتبع ما أمرتمونا به، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. «ألفينا»، أي: وجدنا عليه آباءنا، و«ألفينا»، بمعنى: وجدنا، كقوله تعالى: ﴿ وألفيا سيدها لذا الباب ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: وجداه عند الباب.

قال الله تعالى ردا عليهم: (أولوكان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»، أي: أيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيـا ولا يهتدون والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.
وقوله: «لا يعقلون شيئا ؟، أي: لا يفهمونـه، ولا يفقهونـه وليس المعنى: لا يعرفونه، هم يعرفون الأشياء، وهم أذكياء، لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها إلى ما ينفعهم، ويتركون بها ما يضرهم؛ ولهذا قال: «لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»؛ لأنهـم وإن كانوا أذكيـاء، وعندهم علم وفهم، لكن ليس عندهم عقل. وهناك فرق بين العقـل الذكاء: العقل يحمل صاحبه على حسن التصرف، وأمـا الـذكاء وبين
فقد يحمل صاحبه على حسن التصرف إن كـان مقرونا بالعقـل، وقد يحمله على الطيش وعدم حسن التصرف إذا لم يكن مصحوبا بعقل.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي: 1ـ أن هؤلاء المخالفين للرسل، معاندون؛ لقوله: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا *
٢ـ أنه يجب اتباع ما أنزل الله، فيها نص الله عليه، وفيها أرشد إليه:

أما مـا نص الله عليه: فمثل قوله تعالى: (فأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة ﴾ [الحج: 78] وأما ما أرشد الله إليه: فمثل قوله ـ تعالى ـ: « يتأيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النساء:59، محمد: 33]. وهذا يدلنا على أن ما أمر به الرسول ﷺ، فإنه مطاع كالذي أمر الله به. ومما يدخل في الإرشاد، قوله تعالى: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل: 43، الأنبياء: 7].
فأحالنا الله ـ عـز وجـل ـ إلى أهـل الـذكر ـ إذا كنـا لا نعلـم ـ لأن العامي قد لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، ولكن يجـب عليـه في هذه الحال، أن يسأل أهل الذكر، أي: أهل العلم. 3ـ أن الوحي نازل من عند الله؛ لقوله: «أتبعوا ما أنزل الله ؟ . ٤- إثبات على الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الشيء إذا نزل منه، كان دليلا
على علوه.

وهذا ـ أعني: إثبات على الله ـ هو قول أهل السنة والجماعة، حيـث قالوا: إن الله تعالى علي بذاته، علي بصفاته. 5ـ قبح التعصب المبني على الجهـل والضلال؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين قالوا: «بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا؟. 6 ـ أن للبـيـئة تأثيرا، فإذا عاش الإنسان في بيئة صالحة، كان ذلـك من أسباب صلاحه، والعكس بالعكس؛ ويؤيد هـذا قـول رسـول الله : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو

يمجسانه» (ا).
- توبيخ من اتبع آباءه على غير هدى وعقل؛ لقوله تعالى: «أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون».

هـ نعت هؤلاء الآباء بأنهم لا عقول لهم؛ لقوله: «لا يعقلون»، و«شيئا»: نكرة في سياق النفي. ولا يهتدونه.

فإن قال قائل: العقل ضده الجنون، فإذا انتفى العقل صار الجنون، والمجنون غير مكلف، فكيف يكون التوبيخ؟

فالجواب: أن العقل، عقلان: الأول: العقل الذي هو شرط التكليف، فهذا ضده الجنون، والعقل الذي ضده السفه، هو: عقل الرشد، أي: أن يكون الإنسان رشيدا؛ ولهذا لو وجدنا شخصا عاقلا من حيث التكليف ـ أي: ليس بمجنون ـ لكن لا يحسن التصرف، قلنا: هذا سفيه، ولنا أن نقول: إنه غير عاقل، أي: العقل الذي يحمله على الرشد. فأما العقل الذي لا يحمل على الرشد، فإنه يسمى ذكاء، ولا عقلاً؛ ولهذا يجب أن نفرق بين العقل والذكاء، فنقول: العقل عقلان: العقل الذي هو شرط التكليف، وهذا ضده الجنون، والعقل الذي هو شرط حسن التصرف، وهذا ضده السفه، وهو المراد هنا في قوله تعالى: «أولوكات اباؤهم لا يعقلوب شيئا ولا يهتدون».

يسمى

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فيات. . .، رقم (١٣٥٨،١٣٥٩)، ومسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . .» رقم (٢٦٥٨).

=٠٩٢١

9ـ أنه ربا يستدل بها على أن الأجداد يسمون: آباء؛ وهذا كثير في اللغة وفي القرآن، أن «الآباء» تطلق ويراد بها الأجداد، والآباء الأدنون. ويتفرغ على ذلك مسألة فرضية، وهي: أنه إذا مات الميت وترك جدا من قبل أبيه، وإخوانا، فإن ماله لجده من قبل أبيه، وليس لإخوانه شيء؛ وذلك لأن جده من قبل أبيه بمنزلة أبيه، بل هو أب حقيقة والأب لا يرث معه الإخوة شيئا، وهذا ـ أعنى: القول بأن الجد من قبل الأب يحجب الإخوة مطلقا ـ هو القول الراجح الذي اختاره كثير من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله ـ وشيخنا عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله .

قال الله ـ تبارك وتعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة: ١٧١]. المثل:بمعنى الشبه، وبمعنى الصفة. وكلا المعنيين

صحيح، يعني: صفة هؤلاء الذين كفروا كـصفـة الـذي ينعـق بـا لا يـسمع، أو شـبه هؤلاء، كشبه الـذي ينعـق بـا لا يـسمع. والـذي ينعـق هـو مـنـادي الحيوانات، والذي لا يسمع إلا دعاء ونداء هو الحيوان، يعني: كمثـل الراعي ينعق للإبل، ينعق للغنم، ينعق للبقر، فتقبـل إليـه مـن غـيـر أن تدري ماذا يصنع، حتى إنه ربما ينعق بها ليذبحها، فتأتي وهي ! لا تدري. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يخـبر أن حـال هـؤلاء الكفـار، وشـبـه هـؤلاء

ورة البقـرة

٥٩٣

الكفار، كهذا الذي ينعق بها لا يسمع ـ أي: ينعق بالدابـة والبهـائـم ـ لا يسمع إلا دعاء ونداء، لا يدري ما هو، ووجه الشبه: أن هؤلاء الكفـار يتبعون من يتبعون من آبائهم وكبرائهم، وهم لا يعلمون أنهم يجرونهم إلى الهلاك؛ ولهذا وصفهم بأنهم صم عن الحق؛ فلا يسمعونه، بكم عن

الحق؛ فلا ينطقون به، عمي عن الحق؛ فلا يبصرونه ـ والعياذ بالله ـ. فهم بنـاء عـلى فقـد هـذه الحـواس مـنهم: «لا يعقلون»، أي: لا يعقلون العقل السليم، الذي يحثهم على الرشد، ويحذرهم من الغي. في هذه الآية الكريمة من الفوائد العظيمة والأحكام ما يلي: ا. سوء مثل الكفار، حيث شبهوا بالذي ينعق بها لا يسمع إلا دعاء ونداء، وهم أهل لذلك، بل هم أضل من هذه الأنعام؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعايهم غلفلون ﴾ [الأحقاف: 5]، وقال الله تبارك وتعالى: إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. ٢. التحذير من التعصب والمتابعة لغير مـن يعـلـم، أو يغلـب عـلى الظن أنه على هدى؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين يتبعون الكفار، وبين أنهم كالذي ينعق بها لا يسمع إلا دعاء ونداء.

٣. نفي الكمال عمن لم ينتفع به؛ فإن الـصمم، والبكم، والعمى، نقص، وهؤلاء الكفار قد يكونون من أقوى النـاس بـصرا، وأشـدهم سمعا، وأفصحهم لسانا، لكن لما كانوا لا يستفيدون من ذلك، صاروا

١٥٩٤

أحكام من القرآن الكريم

كالفاقدين له؛ لقوله تعالى: «صم بكم عمى فهم لا يعقلون). 4-الإشارة البينة إلى الفرق بين العقل والذكاء؛ فإن هؤلاء الكفار الذين يتبعون من يتبعونه من آبائهم وكبرائهم، هم أذكياء، ولا يفوتهم شيء مما يشتهونه ويهوونه، لكنهم غير عقلاء في الواقع؛ لأنهم لم يحسنوا التصرف لأنفسهم، حيث أوقعوها في الكفر والضلال ـ والعياذ بالله فهم لا يعقلون.

ثم قال الله تعالى:« يتأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبنت ما رزقتكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة: ١٧٢]. هنا وجه الخطاب للمؤمنين في قوله: «يأيها الذين امنوا . ونقول حول هذا: تصدير الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم أن يسترعي المنادى انتباهه، وينتبه لما وجه إليه، ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على فضل الإيمان، وأن المتصف به أهل لأن يلقى إليه الخطاب، ويوجه إليه النداء. ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على أن هذا من مقتضيات الإيمان، كما إذا قال القائل لشخص ما: يا أيها الكريم، نزل عليك ضيف، يعني: ومن مقتضى كرمك أن تكرم هذا الضيف، كذلك: «يتأيها الذين ءامنوا»، يعني: من مقتضى إيمانكم أن تمتثلوا ما أمركم الله به في قوله: «كلوا من طيبات ما رزقتكم». ومن ذلك ـ أي: مما يتعلق بتصديره بـ «يتأيها الذين ءامنوا الإشارة إلى أن

M

ترك الامتثال ـ ممن وجه إليه هذا النداء ـ إخلال بالإيمان ونقص له. يقول ـ عز وجل : (يأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقتكم، والأمر هنا: «كلوا » للإباحة، ومعنى ، أي: أعطيناكم، واشكروا لله » معطوفة على(كلُوا»، يعني: اجمعوا بين الأكل والشكر. قال العلماء: والشكر هو: الاعتراف بالقلب للمنعم، والتحدث بالنعمة باللسان، شكرا لا افتخارا، والعمل بطاعة المنعم، تصديقا للأخبار، وتنفيذا للأحكام. وعلى هذا: فالشكر أمر عظيم، ليس بالعمل الهين، ولا يكفي فيه أن يقول الإنسان: أشكر الله، أو: أنا شاكر الله، بل لا بد من هذه الأمور الثلاثة؛ الأول: التحدث بها بالقلب. والثاني: الاعتراف بها باللسان، بأنها من الله ـ عز وجل ـ ونشرها بين الناس، لا افتخارا ولا علوا، ولكن إظهارا لنعمة الله - سبحانه وتعالى ـ عليه. والثالث: العمل بالجوارح فيما يرضي المنعم . عز وجل ..

وقوله: «إن كنتم إياه تعبدون»، يعني: أن من مقتض
العبادة الحقة أن يشكر الإنسان ربه ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي: 1ـ أهمية هذا الأمر الذي وجه للمؤمنين، ووجه هذا أنه صدر بالنداء وبوصف الإيمان.
٢ـ فضيلة الإيمان، حيث كان أهله محلا لإلقاء الخطاب إليهم.

3- وجوب الأكل من الطيبات؛ لقوله:(كلوا من طيبت ما رزقنكم»، والأصل في الأمر: الوجوب، ولكن دلت السنة على أن الأكل يكون أحيانا مباحا، وأحيانا يكون مستحبا، وأحيانا يكون واجبا؛ فيكون واجبا إذا ترتب عليه بقاء الإنسان؛ ولهذا نقول: إن الذين يضربون عن الطعام والشراب، حتى يهلكوا: منتحرون، أي: بمنزلة الذين نحروا أنفسهم؛ لأنه ـ أي: الأكل والشرب ـ يجب عند خوف الهلاك.

4ـ الإشارة إلى أن ما في الأرض من عطاء الله - عز وجل ـ؛ لقوله تعالى:«ما رزقتكم »، وهذا يستلزم أن نشكر الله - سبحانه وتعالى - على ما رزقنا، وألا نتكل على أنفسنا، وألا نفخر بعملنا، وألا نكون كالذي قال الله عنه: « إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص: ٧٨]. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعا شكر نعمته، وحسن عبادته، وأن يزيدنا من فضله.
هـ أن الشكر محله القلب، واللسان، والجوارح؛ كما قال الشاعر : أفادتكم النعاء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا وبين الشكر وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة ما يكون به الشكر : فالشكر أعم، ومن جهة مورد الشكر وموقعه: فالحمد أعم؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد على كمال صفاته وكمال إنعامه. ويشكر ـ سبحانه وتعالى ـ على إنعامه فقط، ويكون الشكر بالقلب

واللسان والجوارح.

6 ـ أن الشكر يكون به تحقيق العبادة الله ـ عز وجـل ـ؛ لقوله: «إن كنتم إياه تعبدون»، وهذه الجملة الشرطية ـ التي يرد مثلها كثيرا في القرآن ـ تفيد معنى التحـدي، أي: إن كنـت صـادقا في عبادة الله، فاشكره، ولا تكفر نعمه.

ثم قال تبارك وتعالى: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به، لغير الله فمن أضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وإنما حرم»: التحريم بمعنى المنع، والجملة هنا فيهـا الحـصر ب إنما »، يقول العلماء: الحصر هو: إثبات الحكم في المذكور، ونفيـه
عا عداه .

فقوله:«إنما حرم عليكم الميتة » بمنزلة قول القائل: مـا حـرم
عليكم إلا الميتة.
و«الميتة» عند أهل العلم: كل ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فيشمل مـا

مات حتف أنفه، وما مات بغير ذكاة شرعية. (والدم »، وهو ذلك السائل الأحمر الذي يخرج من الحيوان ذي الروح، وهو معروف، لكنه هنا مطلق، وفي سورة الأنعام مقيد؛ حيث قال تعالى: (قل لا أجد في ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل

= ٥٩٨

ج
لغير الله به، فمن أضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم * [الأنعام: ١٤٥]؛ فالمراد بالدم هنا: الدم المسفوح . ولحم الخنزير»، والخنزير: حيوان معروف، ولحمه حرام؛ لأنه

رجس وخبث.
وما أهل به، لغير الله »، أي: ما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسـم غير الله؛ فما ذبح للصنم ـ مثلا،

فهو حرام، وإن سمى عليه أو لم يسم عليه، وما ذبح للأكل وسمي عليه اسم غير الله، فهو حرام، وإن كان الإنسان لم يقصد به التعبد، لكن أهل به لغير الله. وما سمي عليه غير اسم الله، فمثل أن يقول: باسم المسيح، باسم الرئيس، باسم الشعب، ويذبح على هذا الاسم، فهذا أيضا حرام لفقد تسمية الله عليه، ولأنه ذبح علي وجه الإشراك بالله ـ عز وجل -.
وقوله: «فمن اضطر»، أي: من ألجأته الضرورة إلى أكل هذه الأنواع الأربعة : الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله. واضطر أصلها: «اضتر»، وأدغمت التاء في الضاد، فصارت طاء، وهي من الضرر، أي: من حصل له ضرر بترك الأكل، وخاف على نفسه المرض أو الهلاك.

وقوله: «غير باغ ولا عاد هذا شرط للضرورة: (غير باغ»، أي: غير باغ للحرام، وغير طالب له. ولا عاد»، أي: ولا معتد، بحيث يأكل بدون حاجة، بل يأكل

سورة البقرة

منه ما تدعو الضرورة إلى أكله فقط.

فلا إثم عليه ، أي: لا عقوبة: فإن كان باغيا أو معتديا فأكل

فعليه الإثم.

٠٩٩

إن الله غفور رحيمه غفور: ذو مغفرة، فيتجاوز عن عباده

السيئات.

رحيم: رحيم بهم، فلا يحرم عليهم ما اضطروا إلى أكله وكان لهم فيه انتفاع؛ فمن أجل مغفرته ورحمته، رفع الإثم عمن كان مضطرا، كذا معنى الآية:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي: 1ـ أن التحليل والتحريم إلى الله ـ عز وجل ـ، لا يملك أحد أن يحرم شيئا حلالا، ولا أن يحل شيئا حراما، إلا الله - سبحانه وتعالى ـ بل قد جاء في الحديث ما يدل على أن من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل

الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله)؛ ولهذا لما قيل يوم خيبر: إن البقول من البصل والثوم والكراث وما أشبهها قد حرمت، قال النبى ﷺ: «إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي"؛ فإذا كـان النبي ﷺ يبرأ من تحريم ما أحل الله، فغـيـره مـن بـاب أولى؛ فـالتحريم والتحليل، والإيجاب والكراهة، كل ذلك إلى الله ـ عز وجـل ـ وحـده؛

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم (3095). (٢) رواه مسـلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا ...، رقم (٥٦٥).